دار التوحيد لتحفيظ القرآن الكريم بجدة
هاتف: ٢٦١٩٥٦٤

وقفات تربوية
مع
سورة الحجرات

برنامج التدبر
الملزمة الحادية عشرة

جمع وإعداد: نجلاء السبيّل

الفهرس

العنوان	الصفحة
المحور الأول: التعريف بالسورة	١
ما المقصود بالحجرات؟	١
مقصود السورة	٢
وقفة مع النداءات في السورة	٢
ما علاقة النداء (يا أيها الذين آمنوا) بمقصود السورة؟	٣
المحور الثاني: مدارسة مقاطع السورة	٤
الأدب الأول: أدب الاستسلام والتسليم والوقوف عند حكم الله ورسوله	٤
من صور التقدم بين يدي الله ورسوله	٥
الأدب الثاني: توقير النبي ﷺ ومعرفة مكانته وعدم رفع الصوت في حضرته ومجلسه	٦
هل يبقى الحكم قائماً حتى بعد وفاة رسول الله ﷺ؟	٧
كيف تُمتَحن القلوب؟؟	٨
لماذا اختلفت نبرة الخطاب للصحابة عن نبرة الخطاب للأعراب مع أن الخطأ واحد؟	٩
الأدب الثالث: أدب التثبت والتحري في الأخبار.	١٠
التثبت والتحري منهج قرآني نبوي.	١١
صفات المتثبت	١٣
الأدب الرابع: أدب الإصلاح وترك التنازع والخصام والإقتتال.	١٧
النداء الرابع	١٩
السخرية	٢٢
اللمز	٢٣
التنابز بالألقاب	٢٣
النداء الخامس	٢٤
لماذا نُهينا عن التجسس؟	٢٥
الغيبة	٢٦
مسألة	٢٧
مسألة	٢٨

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد...

لما افتتحتُ سورة الحجرات اقترحت على الأخوات الحاضرات ومشرفات المساجد ممن يرتبن البرامج الدعوية للنساء في رمضان أن تُدّرس سورة الحجرات بعد صلاة التراويح، فالسورة مليئة بالوصايا والآداب والأخلاق والتوجيهات التي نحتاجها جميعاً، الكبيرة منا والصغيرة، المتعلمة والأمية، الداعية وطالبة العلم، فالكل محتاج أن يربي نفسه ويسعى لإصلاحها وتهذيبها وتكميلها وتزكيتها، فهذا مشروع لا ينقطع، ورمضان فرصة إذ القلوب مقبلة ومهيئة فلعلنا بتدبر هذه السورة في هذا الشهر المبارك أن نسقيها بالقرآن.

وما أعظمها وما أبركها من سُقيا، فالقلوب لا تنصلح إلا بالقرآن، وهنيئاً ثم هنيئاً لمن أجرى الله هذه السُقيا على أيديهم...

فوالله ما فتحتِ قلباً بكلمة إلا وأُجرتِ عليه...

وما شرحتِ صدراً بكلمة أو كنتِ سبباً في هداية إنسان إلا وأُجرتِ عليه وكان في صحيفتك..

دعوة الناس بوابةٌ عجيبة لزيادة الإيمان وبها يستمْطِرُ العبد توفيق الله ومعونته ونحن أحوج ما نكون في رمضان لهذا التوفيق ولهذه المعونة.

يقول ابن سعدي رحمه الله ذاكراً أجر الداعي إلى الله:

" فكلما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق وصَبَر على ذلك، لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله ويؤيده بنور منه وروحٍ وقوةٍ وإيمان"[1].

اللهم عبّدنا لك وذلّلنا لك وسخِّرنا لك واستعمِلنا بطاعتك وارزقنا الصدق معك

---

[1] التوضيح والبيان لشجرة الإيمان صـ ٤٩

سورة الحجرات

المحور الأول: التعريف بالسورة

– سورة الحجرات سورة مدنية وهي من السور المتأخرة في النزول. نزلت في العام التاسع من الهجرة، ويسمى بعام الوفود لكثرة الوفود والعشائر والقبائل التي بدأت تفِد على رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية.

– لا يوجد لهذه السورة اسم غير الذي اشتهرت به وهو سورة الحجرات.

ما المقصود بالحجرات؟

هي الحجرات التي كانت تسكنها أمهات المؤمنين زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، وهي تسع حجرات، كل زوجة لها حجرة، وكل حجرة لها باب مفتوح على المسجد مباشرة يخرج منه رسول الله ﷺ إلى مسجده.

مساحتها صغيرة، لا تتجاوز الأربعة أمتار، محاطة بعسيب النخل، إذا دخلها الداخل فإنه يستطيع أن يلمس سقف الحجرة بيده لصِغر مساحتها وتواضع بنائها، وكل حجرة منها كانت تشكل بيتاً كاملاً، ففيها يستقبل رسول الله بعض أضيافه وفيها يأكل وفيها ينام وفيها يصلي حتى إنه عليه الصلاة والسلام إذا قام يصلي في الحجرة وأراد أن يسجد وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نائمة لا يتمكن من السجود إلا إذا غمزها فترفع رجليها فيسجد!!!

– من تأمل هذه الحجرات الصغيرة المتواضعة الخالية من مظاهر الترف والبذخ عرف أن المسألة ليست مسألة مظاهر ولا قصور ولا بيوت واسعة ولا فُرشٍ وثيرة إنما المسألة مسألة قلوب.

ومن ثقافة الناس اليوم – وخاصة النساء– أنهم يعلقون سعادتهم بالأمور المادية ويعتقدون أنها ستمنحهم حياة مملوءة بالسعادة وأن جميع مشاكلهم ستنتهي بمجرد أن يسكنوا في الحي الفلاني أو البيت الفلاني أو يفرشوا الأثاث المستورد من البلد الفلاني. والحقيقة أن السعادة المرتبطة بهذه الأمور ما هي إلا سعادةٌ وقتية، سعادةُ الفرحِ بالشيء الجديد التي لا تلبث أن تنتهي، بينما السعادة الحقيقية التي تدوم ولا تنتهي هي أن تكون مع الله.

إذا كنت مع الله وكان الله معك فعِش في أي مكان في شقة، في فيلا، في حجرة فلم يعد الأمر يفرق كثيراً لأن القلب اتصل بالله وأصبحت أمور الدنيا عنده سهلة إن أقبلت أو أدبرت، فما هي إلا دنيا، وهو يعرف تمام المعرفة أن الله خلق الدنيا وليس فيها سعادةٌ كاملة ولا سرورٌ كامل، فالله يقول ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ [الإنشقاق:١٩]. فالأحوال تتغير وتتقلب من حال إلى حال ولن يستمر الإنسان في سعادة دائمة أو في صحة دائمة أو في مسرة دائمة، فالله قد جعل مسرات الدنيا إلى تنغيص وإلى تكدير.

ومهما رأى الإنسان من بهجة الدنيا وترفها ونعيمها وزخرفها ومهما ضحكت له وأفرحته وسرّته فلا بد أن يأتي يوم وتُبكيه ويذوق شيئاً من الألم والكدر والحزن والفقد. وكل هذا حتى لا يتعلق بها ويعلق سعادته بأهلها وبيوتها وإقبالها وإدبارها، وتبقى سعادته الحقيقية **مع الله**. ومن كان الله في قلبه فلن يضيق عليه قلب ولن يضيق عليه درب وستهون عليه الأمور ويحيا حياة طيبة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

مقصود السورة:

تدور سورة الحجرات حول الآداب والمكارم والأخلاق وتعالج كثير من السلوكيات التي لا ينبغي للمؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتصف بها كالغيبة والنميمة والسخرية واللمز والتنابز والتجسس وسوء الظن وكثرة الشائعات والخصام والهجر ونحوها..

فكأن السورة بما فيها من الآداب والوصايا والتوجيهات تُشكِّل نسيجاً ومنظومة متكاملة تُنشئ مجتمعاً إسلامياً صحيحاً صافياً من المكدرات والمنغصات الأخلاقية، فالسورة تعطيك قواعد في التعامل وقواعد في الآداب سواء كان الأدب مع الله عز وجل أوالأدب مع رسوله أوالأدب مع النفس ومع الناس فهي تبرز جانب الأدب بصورة ضخمة. والأدب منزلة من منازل الإيمان من منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ولن يستقيم سير السائر إلى الله بدون أدب.

وبالعموم فإن جو السورة فيه ارتقاء وعلوّ وسموّ وتحليق بالمؤمن عن السفاسف والدنايا والقبائح، والإنسان كلما حلّق وارتفع بدأ يستنشق هواءً صافياً، هواء يختلف عن الهواء الذي يستنشقه حين يكون قريباً من الأرض وقريباً من تُربتها وطِينها وغبارها وشِجارها وتلوثها. فالسورة نزلت لتربي المسلمين وتكملهم بالأخلاق.

وقفة مع النداءات في السورة:

❖تكرر فيها النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خمس مرات. وهذا النداء من النداءات المهمة في القرآن كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك" لماذا؟ لأنه بعدها إما خيراً تؤمر به وإما شراً تُحذّر وتُنهى عنه.

❖ كما أن هذا النداء يتضمن معنىً لطيفاً، وذلك بأن المنادي هو رب العالمين جل جلاله، وعادةً المنادي يكون مقبلاً لا مدبراً، فكأن المعنى [يا مؤمن اللهُ يناديكَ فأقبلْ عليه] والإقبال من الله يريد إقبالاً منك. فإذا استشعر القارئ هذا المعنى تحرك الإيمان في قلبه وشعر بأهمية النداء وأهمية ما سيأتي بعده.

- ما علاقة هذا النداء بمقصود السورة؟ بعبارة أخرى ما علاقة الإيمان بالأخلاق والآداب؟؟

أولاً: لا يمكن أن يُطالب بهذه الأخلاق والآداب العالية الرفيعة إلا من كان مؤمناً.

فالتوفيق معقودٌ بالمحل يعني أنه مرتبط بالقلب، إذا كان قلبُكَ مؤهلاً أتاك التوفيق. إذا كان قلبك ممتلئ بالإيمان وتحرك فيه الإيمان وبدأت تتكامل فيه شعب الإيمان أتاك التوفيق لهذه الأخلاق ولهذا السموّ ولهذا الارتقاء، أما إذا كان الإيمان عندك ضعيفاً وهشاً رقيقاً متهالكاً لا يمكن أن تصل لهذا الارتقاء في. فالأخلاق ما هي إلا ثمرة من ثمرات شجرة الإيمان.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٢٤].

هذا المثل مضروب لشجرة الإيمان الموجودة بالقلب، شبهها الله بشجرة طيبة والشجرة لا تكون طيبة إلا إذا كانت مثمرة. وشجرة الإيمان شجرة مثمرة نافعة مباركة ومن ثمراتها الأخلاق فكلما زاد الإيمان زادت الأخلاق وزاد الأدب وزادت السماحة وبَسطَ الله هذه القلوب.

انظر لحال أولئك الناس الذين تجد عندهم معاناة في أخلاقهم ومعاناة في تعاملهم وفي تواصلهم مع الناس إما أن تراه كئيباً تعيساً ثقيل النفس وكأن روحه أثقل من الرحى! وإما أن تراه نُقَدَه ينتقد كل شيء ويدقق في كل شيء، ويحلل كل شيء فتتأزم وأنت تتعامل معه، وإما أن تراه سبّاباً شتاماً مجادلاً بذئ اللسان وإما أن تراه متوتراً غضوباً مندفعاً قد يضيق ويتضجر ويتعكر مزاجه وينقلب في لحظات.

الآن هذا الضيق وهذا الضجر وهذا التوتر الذي يظهر في أخلاقه من أين جاء؟ وما هو مصدره؟؟

إنه من ضيق القلب، فالله إذا قبض القلوب ضيّقها ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

- وهذا القبض الذي في القلب ربما ابتلي به الإنسان بسبب تقصيره أو تفريطه في حق من حقوق الله (من تضييع للصلاة أو هجرٍ للقرآن أو بعدم الإقبال على الله، أو تركاً للطاعة ونحوها...)، فغيّر الله عليه وانتقل من بسط إلى قبض ومن سعة إلى تضييق ومن فتح إلى إغلاق ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].
- وربما ابتُلي به بتضييع أو تفريط في حق من حقوق الخلق (حق الوالدين أو حق الأولاد أوالأقارب والأرحام أو الزوج ونحوها...)

كل هذه الحقوق أمانات من ضيعها أو تساهل فيها وفرط فربما أُصيب بشيء من التضييق والتكدير والتنغيص في حياته.

- وربما ابتلي به بسبب كثرة تتابع المعاصي والسيئات سيئة وراء سيئة ومعصية تعقبها معصية، ومع كل معصية تُنكت نكتة سوداء في القلب حتى يسودّ القلب ويضيق ويُوحِش ويُظلِم، فيرى الإنسان أثر سيئته على قلبه فالسيئة ما سميت سيئة إلا لأنها تسوء صاحبها فيظهر هذا على أخلاقه وتعامله.

فإذاً رأى الإنسان من نفسه قلة صبر، وكثرة ضيق، وبذاءة لسان، وتضجّر وتأفف، ومزاجات متقلبة متعكرة، فهذه كلها مؤشرات على قبض القلب الذي جاء من نقصان الإيمان، وإذا نقص الإيمان نقصت الأخلاق.

لذلك كان النبي ﷺ يدعو ربه **اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت** وكان يستعيذ بالله من سوء الخلق **اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء.**

فسوء الخلق يفسد كل شيء، يفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل، وللأسف أن الكثير والكثير من الحسنات يضيع ويتلاشى بسبب سوء الخلق.

وقد ذكر أهل العلم أن من علامات توفيق الله للعبد أن يمنحه مكارم الأخلاق، فمن رأى في نفسه أن الله قد رزقه حسن الخلق فليعلم أن الله أرادَ به خيراً.

فلما سُئل رسول ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة قال: "**تقوى الله وحسن الخلق**" وسُئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار قال: "**الفم والفرج**"[1].

وأخبر في حديث آخر أن "الإنسان يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم"[2]. أي أن الله فتح له باباً من الأجور لا ينقطع.

والمسألة ليست في دخول الجنة وحسب بل إن حسن الخلق يوصل صاحبه لمنزلة القرب من رسول الله ﷺ وهي منزلة تشرأب لها الأعناق "**إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً**"[3].

وأختم بهذه المقولة لأحد السلف: إن هذه الأخلاق وهائب وإن الله إذا أحبَّ عبده وهبهُ منها.

وبهذا تبينت العلاقة والإرتباط بين الإيمان والأخلاق، أي بين تكرار النداء في سورة الحجرات وبين مقصودها.

المحور الثاني: مدارسة مقاطع السورة

الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)﴾

○ **ما هو الأدب أو الخلق الذي تشير إليه هذه الآية؟ [أدب الاستسلام والتسليم والوقوف عند حكم الله ورسوله].**

– ذكر في سبب نزول الآية الخلاف الذي وقع بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وذلك حين قدم وفد بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: يا رسول الله أمّر عليهم القعقاع بن مَعْبَد، وقال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما[4] فنزلت الآية لتؤدب وتنهي وتحذّر المؤمنين من أن يتقدموا ويسبقوا بكلامهم حكم الله ورسوله. فيا أيها المؤمنون لا

---

[1] سنن الترمذي (٢٠٠٤)

[2] مشكاة المصابيح (٤٦٤/٤)

[3] صحيح الترمذي (٢٠١٨)

[4] التفسير الموضوعي (٣٤٢/٩)

تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله، كونوا تبعاً له في جميع الأمور، لا تتقدموا بكلامكم على قول الله ورسوله وهذا هو مقتضى الإيمان.

ومن صور التقدم بين يدي الله ورسوله:

القول على الله بغير علم، الفتوى بغير علم، التعالم والتصدر بغير علم.

إذا كان الملائكة وهم أشرف الخلق وأكثر الخلق معرفة بربهم لما سألهم الله عن أسماء الأشياء بعد أن سماها لآدم عليه السلام فقال الله للملائكة ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:٣١].

ماذا قالت الملائكة؟ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].

نحن ننزهك ونسبحك يا رب كيف نعلم أسماء هذه الأشياء وأنت لم تعلمنا، لا علم لنا إلا ما علمتنا وأظهروا لله عجزهم وجهلهم وفقرهم.

- نبينا ﷺ لما سُئل عن الساعة قال: "**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**"[1].
- العلماء الراسخون إذا سُئلوا عن أمر لا يعلمونه يقول الواحد منهم لا أعلم.
- هذا ابن عمر رضي الله عنه وهو من علماء الصحابة سُئل مسألة فقال: لا أدري. فلما خرج السائل من عنده أخذ يفرك يديه ويقول [سُئل اين عمر عما لا يدري فقال: لا أدري] يرددها فرِحاً بها.
- الإمام مالك رحمه الله كان الرجل يأتيه من اليمن ومن بغداد، ويقطع المسافات ليصل إليه ويستفتيه ثم إذا سأله في بعض المسائل يقول: لا أدري، لا أعلم. فيتعجب السائل ويقول: وماذا أقول لقومي؟ قال: قل لهم مالك يقول: لا أعلم.

وكل هذا حتى لا يتقدموا على الله ورسوله ويفتوا بغير علم.

ومن صور التقدم أيضاً:

- تقديم الأعراف والتقاليد والعادات على حكم الله وشريعة الله.
- رفض أحكام الشريعة وتحكيم القوانين الوضعية.
- البدع والمحدثات وكأن دين الله ناقص وهم سيكملونه بهذه البدع.

ثم ختمت الآية بختام قوي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. اتقوا الله أن تتقدموا بآرائكم وكلامكم أو أعرافكم وتقاليدكم أو أحكامكم وهواكم على قول الله ورسوله فإن الله سميع لما تقولون عليم بما تفعلون ولا يخفى عليه شيء. وهذان الاسمان السميع العليم يوقعان في قلب العبد الخوف والوجل، وتجعلانه أكثر استحضاراً لنظر الله إليه، وأكثر مراقبةً ومحاسبةً لنفسه فيما يقول ويفعل فيزداد خوفه من أن يتقدم على الله ورسوله.

○ **الأدب الثاني: توقير النبي ﷺ ومعرفة مكانته وعدم رفع الصوت في حضرته ومجلسه.**

---

[1] صحيح النسائي (٥٠٠٦)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾.

النبي ﷺ مقامه عالياً عند ربه ويكفينا أن نتأمل الشرف الكبير الذي امتن الله به عليه حين قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

ومعنى أن الله يصلي على النبي أي يُثني عليه في الملأ الأعلى.

ومعنى صلاة الملائكة عليه: دعاؤها له. وقيل: استغفارها[١].

ثم يأتي الأمر لأهل الأرض صلوا عليه وسلموا تسليما حتى يجتمع الثناء عليه من أهل السماء وأهل الأرض بهذا العدد الكثير المتكاثر الذي لا يحصيه إلا الله وتبقى الصلاة عليه صلاة دائمة مستمرة متجددة مع مرور الأزمان والليالي والأيام.

وأيضاً من عظيم عناية الله بنبيه وحفظ جنابه وقدره أنه حرم أذيته عليه الصلاة والسلام ورتب على أذيته وعيداً شديداً..

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٦١].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٧].

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) ﴾ [الأحزاب:٥٣].

وهذه كلها قوارع شديدة وتهديد قوي.

لذلك لما قال رسول الله لأم سلمة رضي الله عنها لا تؤذيني في عائشة، مباشرة ماذا قالت؟ أتوبُ إلى الله من أذاكَ يا رسول الله[٢].

ولما حصلت خصومة بين العباس وبين جمعٌ من الناس وتأذى رسول الله بتأذي عمه وصعد المنبر وقال: العباس مني وأنا منه. قالوا يا رسول الله نعوذ بالله من غضبك، استغفر لنا[٣].

والمقصود يا مؤمنون اعرفوا قدر نبيكم، واحفظوا له مكانته ووقروه ولا تؤذوه ولا ترفعوا أصواتكم في مجلسه ولا عند مخاطبته ولا عند مناداته، واجعلوا كلامكم وحديثكم معه ﷺ على مستوى عال من الأخلاق والآداب والاحترام والتوقير.

لا تفعلوا كما فعل أولئك الأعراب- وفد بني تميم- حين قدموا على رسول الله ووقفوا خلف الحجرات، في وقت قيلولته، وأخذوا يرفعون أصواتهم ويجهرون وينادونه باسمه يا محمد اخرج إلينا، يا محمد اخرج إلينا فإن مدحنا

---

[١] المصباح المنير- سورة الأحزاب

[٢] البخاري- الفتح (٢٥٨١)

[٣] أخرجه النسائي (٣٣/٨)- اسناده حسن

زين وإن ذمنا شين، فآذوا رسول الله وأزعجوه ولم يلتزموا الأدب معه فنزلت الآيات تحذر المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

والأمر ليس فقط متوقف على إساءة الأدب مع رسول الله بل إنه يترتب عليه وعيد شديد ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. تنبهوا فالأمر قد يكون فيه إفساد وإبطال لأعمالكم وحسناتكم.

لذلك تأثر الصحابة بهذه الآية تأثراً بالغاً وكان ممن تأثر ثابت بن قيس رضي الله عنه وكان جهوري الصوت، لما نزلت الأية خاف واعتزل وجلس في بيته وأقفل عليه بابه وأخذ يبكي بكاءً شديداً، فافتقده رسول الله وأرسل أحد الصحابة يسأل عنه فلما جاءه وجده في بيته منكساً رأسه يبكي فقال: مالك يا ثابت؟ فقال أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار. فأخبروا رسول الله بذلك فقال: اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة.

- وممن تأثر أيضاً أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

أما أبو بكر فقال: والله يا رسول الله لا أحدثك إلا كأخي السرار.. أي كالذي يقول لصاحبه سراً.

وأما عمر فكان يخفض صوته بعد نزول هذه الآية فما كان يُسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه ويستوضحه.

وهذا من كمال أدبهم رضي الله عنهم وسرعة استجابتهم لأوامر الله وشريعة الله.

هل يبقى الحكم قائماً حتى بعد وفاة رسول الله ﷺ؟

الجواب: نعم لأن رسول الله ﷺ محترم في حياته وبعد مماته، فقد أجمع أهل العلم بعدم جواز رفع الصوت في مسجد رسول الله. سمع عمر رضي الله عنه صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريا أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ فقالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً[1].

- نحن مطالبون بخفض أصواتنا في حياتنا العادية. فخفض الصوت يعتبر أدب عال وراقٍ جداً مع النفس.

ولقد جاء في وصف رسول الله ﷺ أنه لم يكن سخّاباً بل كان صوته إذا تكلم غايةً في الجمال كأن كلامه حبات لؤلؤ تنسلُ من عقدها من جمال منطقه وصوته.

الصوت العالي ليس فيه مزية بل هو صوتٌ فيه نكاره كما قال لقمان لابنه ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

---

[1] رواه البخاري- اليسير في اختصار ابن كثير

كأنه يقول يا بني لا يوجد مزية أبداً في رفع الصوت كما يرفع الحمار صوته ومع أنه يصرخ ويرفع فلا يأبه به أحد. فياليتنا نتعلم ونتدرب ونتمرس على هذا الأدب الراقي بأن نخفض أصواتنا مع أولانا ومع أزواجنا وفي بيوتنا بل حتى مع أنفسنا.

○ ثم تأمل الجزاء الذي جعله الله لمن يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

والعظيم لا يمكن أن يستعظم حقيراً أو قليلاً أو تافهاً، العظيم إذا استعظم شيئاً لا بد أن يكون عظيماً. فطالما أن الله العظيم جل جلاله قال عن أجرٍ أنه عظيم فلا تسَلْ عن قدر هذا الأجر وسعته وحجمه فلا يقدر قدره إلا الله.

ثم إن الله أثنى عليهم في الآية بثناء ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الامتحان هو التخليص، ومنه عرض الذهب على النار، والذهب معدن نفيس لا تحرقه النار وإنما تخلصه من الشوائب والمعادن الأخرى التي اختلطت به فإذا أُدخل في النار تذوب هذه الشوائب وتزول وتتلاشى ويبقى الذهب وفي هذه الآية إشارة أن القلوب تُمتحَن وأنها في امتحان مستمر.

كيف تُمتحَن القلوب؟؟

تُمتَحن بالمحن والبلايا، تُمتَّحن بالفتن سواء فتن الشهوات أو الشبهات كما ورد في الحديث [1]: **"تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً..."**. فهناك قلب يتشرب الفتنة ويتقبلها وينغمس فيها، وهناك قلب يجاهدها، يدافعها، يغالبها حتى لا تؤثر عليه.

- فكل معصية أو شهوة أو فتنة تمر على القلب ويتعرض لها الإنسان، سواء كان لوحده او مع الناس فهذه لحظة امتحان، قلبك يُمتحن. إما ان تجاهد وتغالب وتدفع فتنجح في الامتحان وإما ان تقبل وتستجيب وتزل قدمك فترسب في الامتحان.
- أيضاً القلوب تُمتحن بالأوامر والنواهي، فإذا استجاب الإنسان لأوامر الله وانقاد وسلّم واستسلم وقال سمعنا وأطعنا فهؤلاء هم الذين تمحصت وتمحضت وصفت وطهرت قلوبهم من كل مزاحمة ومن كل شائبة، ومن كل هوى، ولم يبقى في قلوبهم إلا التقوى وقد شهد الله لهم بطهارة قلوبهم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، أي ان الله خلّصها ونقاها فلم يبقَ فيها إلا التقوى.
- أيضاً الفعل (يغضون) فيه معنى بلاغي يشير لفائدة..

---

[1] صحيح مسلم (١٤٤)

أصل الغض يكون للعين ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور:٣١]. لكنه استعير هنا للصوت ليدل كما أن غض البصر أدب راقٍ وجميل، كذلك غض الصوت أدب راقٍ وجميل. وإذا جمعنا غض البصر مع غض الصوت فإنهما يدلان على الحياء، والحياء لا يكون إلا من قلب قد أُفعِم بالإيمان وبالتقوى لأن الحياء والإيمان قرناء إذا رُفِع أحدهما رُفِع الآخر [١] .

- بقي أن نشير إلى معنى لطيف ذكره بعض أهل العلم[٢].

لما خاطب الله الصحابة الذين حصل منهم رفع الصوت في مجلس رسول الله ﷺ كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كان الخطاب فيه شدة وصرامة ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بينما لما خاطب الأعراب الذين صدر منهم نفس الخطأ ورفعوا أصواتهم وأخذوا ينادونه عليه الصلاة والسلام يا محمد اخرج إلينا كان الخطاب فيه شيء من الرفق واللين والتسامح ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لماذا اختلفت نبرة الخطاب مع أن الخطأ واحد؟؟

الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مع رسول الله يخالطونه ويجالسونه، ويسمعون منه الوحي، ويعرفون مقام رسول الله ﷺ عند ربه لذلك كان المطلوب منهم أكثر من المطلوب من غيرهم. ومن المعلوم أن العبد إذا أُعطي من النعمة كمالها كان المطلوب منه أكثر من المطلوب من غيره فالكامل يؤثر فيه النقص ولو كان بسيطاً، فجاءت الصرامة والشدة معهم من باب التربية والتزكية والتهذيب لهم.

قسا ليزدجرُوا ومن يكُ راحماً　　　فليقسوا أحياناً على من يرحمُ

بينما الأعراب لم يخالطوا رسول الله ﷺ ولم يجالسوه ولا سمعوا وحياً ولا قرآناً ولا يعرفون قدره ومقامه عليه الصلاة والسلام. إنما هم قوم أتوا بطبيعتهم وجفائهم وباديتهم وكانوا أصحاب حاجة لا هم لهم إلا أن تُقضَ حاجتهم – وهي فكاك أسراهم- فترفق معهم وألان لهم. وهذا منهج رباني بديع يربينا عليه القرآن إلا وهو **[أدبُ الحلم مع الجاهل]** وهو أدب وخلق لا يقدر عليه إلا كِرام الناس، أصحاب النفوس الكبيرة، الذين تأدبوا بالقرآن ولبسوا لباس الأخلاق وعلى رأسهم رسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن فكان سيد الحلماء بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام.

- تأمل ذاك الصحابي الذي ابتُلي بشرب الخمر فأُتى به في المرة الأولى فجُلد، ثم أُتي به ثانيةً فجُلد ثم أُتي به في الثالثة وجُلد فقال بعض الصحابة: "أخزاك الله" غضباً من تصرفه. فماذا قال رسول الله؟؟

" لا تعينوا الشيطان على أخيكم فوالله ما علمته إلا أنه يحب الله ورسوله"[٢].

[١،٢] من شرح الدكتور مصطفى البحياوي في تفسير سورة الحجرات- بتصرف

[٢] صحيح البخاري (٦٧٨١)

الله أكبر ! تأمل كيف أثبت له أخوة الإيمان بالرغم أنه يُجلد الآن في حد من حدود الله، مرتكباً كبيرة من الكبائر ومع ذلك لم ينفي عنه هذه الأخوة ولم يطرده منها .

لم يوبخه عليه الصلاة والسلام ولم يعنّفه ولم يُغلظْ عليه، وإنما حَلُم عليه وبحث عن صفةٍ طيبةٍ إيجابيةٍ فيه فذكرها "أنه يحب الله ورسوله".

لك أن تتخيل كيف سرت هذه الكلمة إلى قلب ذلك الصحابي وهو يُجلد والكلمات والنظرات حوله كلها وتدينه أنت مذنب، أنت شارب خمر، أنت مخطئ، أنت وأنت..... ثم يسمع هذه الكلمات النيرات المشرقات مِن منْ؟ إنها من رسول الله ﷺ، إنه الحلم مع المخطئ، الحلم مع الجاهل. هذا الأدب الذي يفتح أبواب التوبة والإصلاح والتغيير والتفاؤل.

إنه الأدب الذي يعلمنا كيف نُبرز محاسن الناس حتى وإن كانوا مخطئين، حتى لا نخسرهم، حتى لا نخسر أهلينا وأقاربنا وأولادنا وبناتنا، فكلنا ذوو خطأ، والنقص واردٌ وارد، والكمالُ عزيز.

○ الأدب الثالث: أدب التثبت والتحري في الأخبار.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)﴾.

- نزلت الآية في الوليد بن عقبة بن أبي مُعيْط . أرسله رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ليجمع منهم أموال الزكاة، وهو في الطريق حدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فخاف ورجع من دون أن يصل إليهم، وقال: يا رسول الله منعوني الزكاة وأرادوا قتلي فغضب رسول الله وحدّث نفسه بغزوهم فنزلت الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، (فتبيّنوا) أي تثبتوا وتحققوا وتأنّوا ولا تتعجلوا حتى لا تصيبوا قوماً بجهالة، فتعتدوا وتؤذوا وتقتلوا فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.
- الآية تشير إلى أدب التثبت والتحقق وعدم العجلة، وما أحوجنا في هذا الزمان لهذا الأدب الذي سهُل فيه انتشار الأخبار بسرعة مذهلة، فبمجرد ضغطة زر ينتشر الخبر على الآلاف بل ملايين البشر، وبعض الناس قد لا يحتاج أن يضغط زراً هو بنفسه مذياعاً، ما أن يسمع الخبر إلا وطار به طيراناً وهو لم يتأكد بعد من صحة الخبر وتفاصيله وأحداثه وإنما تلقّفه ونشرهُ وأذاعَه .

ومن طبيعة الكلام إذا نُقل من شخص لشخص فإنَّ هذا يزيده وهذا يُملّحه وهذا يُبهّره حتى يصل إلى حد كبير من المبالغة. والقرآن يصور لك هذا المشهد كما جاء في حادثة الإفك حين اخذ الناس يخوضون في عرض السيدة عائشة رضي الله عنها ويتناقلون الكلام. يقول الله تعالى ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ [النور:١٥]، يعني لسان يتلقى عن لسان بدون تروي ولا تحري ولا تدقيق ولا تمحيص ولا إمعان نظر وكأن الكلام لا يمر على آذانهم ولا يمرّ على عقولهم، مجرد كلام تقذف به الأفواه وتتناقله الألسن.

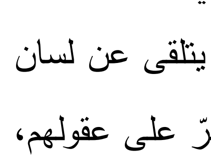

- والله عز وجل يقول محذراً في سورة الإسراء ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) ﴾.

يا مؤمن لا تقفُ ما ليس لك به علم، لا تَتَبَعْ ما ليس لك به علم، لا تُرخي سمعك وتجعله آلة تسمع به كل شيء، وتقبل به كل شيء.

لا تجعل قلبك وسمعك وبصرك ميداناً للشائعات والأخبار والقيل والقال، لا تكن نُقَلة، فإن كُل من نَقَل كلاماً لم يتثبتْ منه فقد قَفَا ما ليس له به علم.

ثم يأتي التعليل: لماذا لا تقف ما ليس لك به علم؟

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾، هذه الحواس كلها أنت ستُسأل عنها وتُحاسب عليها، ماذا عملت بها؟ بماذا أشغلتها؟ بماذا صرفتها؟؟ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩١-٩٢].

وليست القضية أنك ستُسأل عنها فقط بل هي أيضاً ستشهد عليك ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، ويقول الله تعالى ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت:٢١].

هذه الجوارح إذا وقفت بين يدي الله ورأت جلالة الموقف وهيبة الوقوف تخلت عنك وشهدت عليك بما كنت تعمل، هذا في الآخرة. أما في الدنيا فإنه لا يطمس نور التقوى في القلب مثل شهوة الكلام، فاللسان على رأس الجوارح. وما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وجوارح الإنسان كلها تناشد اللسان "اتق الله فينا إنما نحن بك، إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا".

فيا مؤمن تعاهد سمعك وبصرك ولسانك وكُن متثبتاً.

⇦ التثبت والتحري منهج قرآني نبوي.

في قصة حاطب بن أبي بلتعة لما أراد رسول الله ﷺ أن يفتح مكة، وأخذ يعدّ العدة والجيش ليغزو قريش وكان يدعو: اللهم عمي عليهم خبرنا. حتى لا تعرف قريش أن رسول الله يريد قتالهم. فقام أحد الصحابة وهو حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وأرسل خطاباً لقريش يعلمهم بأن رسول الله يعدّ جيشه ليغزوهم ويفتح مكة!!

الآن هذا الفعل الذي صدر من حاطب ماذا يُعدّ؟؟ يعدّ خيانة لرسول الله ﷺ وإفشاء لسره، كما أن فيه موالاة للكفار قد تخرجه من الدين، ولكن لما نزل جبريل عليه السلام وأخبر رسول الله بما فعل حاطب لم يتعجل رسول

الله ويأمر الصحابة بقتله وقال هذا منافق، هذا مرتد، هذا قد باع دينه، هذا كذا وكذا، وإنما فعّل منهج التثبت والتحري وسأل واستفصل وقال: ما حمَلَك على ما صنعت يا حاطب؟؟[١].

– أيضاً لما جاءه ماعز رضي الله عنه واعترف بين يديه بالزنا، هل مباشرة قبِل رسول الله ﷺ كلامه واعترافه وقال خذوه وارجموه وأقيموا عليه الحد؟؟ لا. وإنما أخذ يسأله ويتحرى: لعلك قبلتْ؟ لعلك غمزتْ؟ وفي رواية: أبهِ جنون؟ أشرِب خمراً؟؟[٢]. لم يعجل عليه بل تأنى وتروّى وتثبّت.

- التروي والتأني خصلة يحبها الله عز وجل، كما قال رسول الله ﷺ للأشج: "**إن فيك خصلتين يحبها الله، الحلِم والأناة**"[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: "**السمت الحسن والتؤده والاقتصاد جزء من أربعةٍ وعشرينَ جزءاً من النبوة**"[٤].

لا يمكن للإنسان أن يوصف بالرشد وبالعقل وبالحكمة إلا إذا كان يمتلك هذه الصفة وهذا السمت، إنها صفة التأني والتثبت وترك العجلة.

- العجلة مذمومة في القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة:١٦]، وقال ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء:١١]. وقال النبي ﷺ: "**التأني من الله والعجلة من الشيطان**"[٥] .

العجلة مرض، أفة من الآفات التي إذا بُلي بها الإنسان خسِر كثيراً في حياته، وربما خسر أحب وأقرب الناس إليه بسبب هذه العجلة المذمومة، العجلة في الغضب، العجلة في الاتهامات، العجلة في الردود، العجلة في القرارات والتصرفات والعقوبات، العجلة في الشكوى وإفشاء الأسرار..

كم وكم من مواقف وأحداث واختيارات في حياتنا تعجلنا فيها ومن ثمّ ندمنا عليها!! وهذه هي ثمرة العجلة فلا يجنى من وراءها إلا الندم، حتى إن العرب كانت تكنيها "أم الندامات".

---

[١] انظر في سبب نزول سورة الممتحنة.

[٢] انظر كتاب الستر على أهل المعاصي للدكتور خالد الشايع.

[٣] صحيح الترمذي (٢٠١١)

[٤] سنن الترمذي (٢٠١٠)

[٥] الترغيب والترهيب (٣٥٩/٢)

* ما هي صفات المتثبت؟؟

١- المتثبت لا يُصدّق كل ما يُقال له.

٢- لا يسارع في إتهام الناس بمجرد أن يسمع الخبر.

٣- لا يُذيع ولا ينشر ولا يَنُم، فشرّ عباد الله المشاؤون بالنميمة بين الناس.

فالنمام إنسان مخادع متلون، متملّق، صاحب وجهين. وقد قال رسول الله ﷺ: **"من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار"**[١].

٤- المتثبت يخاف على قلبه كثيراً، حتى لا يُنقل إليه ما يشوش ويكدّر عليه قلبه.

وتأمل رسول الله ﷺ وهو يقول: **"لا يبلغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر"**[٢].

هذا وهو رسول الله فنحن من باب أولى، لا سيما أن الإنسان ضعيف، والقلوب تتقلب، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

هذه أم الغادية تقول: دخلتُ مع ناس على النبي ﷺ فقلتُ حدثني حديثاً ينفعني الله به، فقال: **"إياكِ وما يسوء الأذن"**[٣].

لأن السمع والبصر ميزابان يصبان في القلب ويؤثران فيه. والقلب حساس يؤثر فيه كل شيء، الكلمة تؤثر، والنظرة تؤثر، الخاطرة تؤثر، الخطوة تؤثر. والذي يخاف على قلبه ويعلم أن القلب هو أنفس وأشرف وأغلى عضو فيه فلن يسمح ولن يقبل ما يشوّش عليه قلبه.

٥- المتثبت لا يفشي سراً، لأنه يعرف حرمة المجالس وأمانة الكلام.

والنبي ﷺ يقول: **"إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة"**[٤].

وقد بوّب البخاري في صحيحه باب [حفظ الأسرار] وهذا فيه إشارة لأهمية هذا الخُلق، وأنه من أخلاق المؤمن وجزء من شخصيته.

- أورد البخاري في صحيحه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي قال فيه: **"أسرّ إليّ النبي ﷺ سراً فما أخبرت به أحداً بعده، ولقد سألتني أم سليم فما أخبرتها به"**[٥].

---

[١] الترغيب والترهيب (٥٧/٤)

[٢] سنن أبي داود (٤٨٦٠)

[٣] مجمع الزوائد (٩٨/٨)

[٤] رواه الترمذي وأبو داود وحسنه. وحسّنه الألباني

[٥] البخاري- كتاب الاستئذان (٦٢٨٩)

– وكذلك فاطمة رضي الله عنها وقد أسرَّ إليها رسول الله ﷺ بسر فسألتها عائشة رضي الله عنها فقالت: **"ما كنت لأفشي على رسول الله سره"**[١].

– قال الأصفهاني: إن كتمان السر من الوفاء[٢].

– العباس عم رسول الله لما رأى عمراً يقرب ابنه عبد الله ويجلسه في مجلسه مع الأشياخ وكبار الصحابة كان يوصيه بأن لا يفشي سراً لعمر.

وكل هذا يدل على أهمية هذا الخُلق وأنه جزء من شخصية المؤمن وكيف كان السلف يربون أولادهم عليه.

* إذاً المتثبت المتأني الذي يوصف بالعقل والرشد والحكمة ليس نُقَلة، ولا مذياعاً ولا نماماً، ولا مفشياً للأسرار، ولا هو خرِب القلب سيءُ الظن.

- ثم يقول الله تعالى في الآية التي بعدها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾.

أيها المؤمنون اعلموا أن فيكم رسول الله وهذه من أكبر وأجلّ نِعم الله عليكم فهو الرحمة المهداة، وهو فيكم ما زال الوحي يتنزّل عليكم من السماء، يتتبع الوقائع، ويقوّم الأخلاق، ويعالج القضايا، فإن التبس عليكم أمر نزل القرآن يوضحه ويكشفه ويبين تفاصيله وأحكامه، كما حصل معكم في قصة الوليد بن عقبة الذي جاء بخبر بني المصطلق وقال أنهم أرادوا قتله ومنعوه الزكاة. فلو أن رسول الله أخذ بكلامه وقاتل بين المصطلق لأصابكم بذلك المشقة والحرج والندم لأنكم أصبتم قوماً لا ذنب لهم.

إذاً وجود النبي بينكم نعمة، ونزول الوحي نعمة، وتمكين الإيمان وتزيينه في قلوبكم حتى ذقتم طعمه نعمة.

وهل الإيمان يُذاق؟؟

نعم يُذاق. يقول ﷺ: **"ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً"**[٣].

وفي الحديث الآخر: **"ثلاثٌ من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن أحبَّ عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار"**[٤].

وعلى ضوء الحديثين يتضح لنا أن للإيمان طعمٌ، وأن له حلاوة وله طلاوة، وكما أن اللسان يتذوق طعم العسل فالقلب يتذوق طعم الإيمان.

---

[١] البخاري- الاستئذان (٦٨٢٥)

[٢] الذريعة إلى مكارم الشريعة- صـ ١٩٤- بتصرف

[٣] صحيح مسلم (٣٤)

[٤] البخاري (٢١)

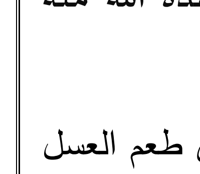

- ولو لم يكن للإيمان حلاوة لما استطاع ذلك الصحابي من الأنصار الذي بات ليلة يحرس رسول الله في غزوة من غزواته، فقام يصلي فرماه أحد الكفار بسهم اخترق جسده فنزعه واستمر يصلي، ثم رماه بآخر فنزعه واستمر يصلي، ثم رماه بثالث فنزعه فركع وسجد وانتهى من صلاته، ثم أيقظ صاحبه الذي كان معه في الحراسة وقد بلغت الدماء منه ما بلغت، فكان ينزف نزفاً شديداً، فلما عاتبه قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها[١].

هذا الصحابي لو لم يذق حلاوة الإيمان ما استطاع أن يُكمَل صلاته والسهامُ تخترق جسدهُ ودمه ينزف!!

- معاذ بن عمرو بن الجموح من صغار الصحابة وكان ممن شارك في بدر وضُرِب فيها بضربة سيف قوية فقُطِعت يده فتدلت.. ماذا قال هذا الشاب الذي قُطعت يده؟؟

يقول: فقاتلت بها عامة نهاري!!

لو لم يكن ذاق حلاوة الإيمان ما استطاع أن ينسى ألمه ويتجاهل يده المقطوعة المتدلية من جسده ويستمر في معركته!!

- أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه يسمع قول الله عز وجل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢]. مباشرة وبدون تردد يقول: يا رسول الله إن أحبَّ مالي إليَّ بيرُحاء وإنها صدقةٌ لله أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيثُ أراك الله[٢].

الله أكبر.. أيّ قلب يحملون؟ وأيّ إيمان حملته تلك القلوب؟؟

بيرحاء بستانٌ فيه ما يقارب من ستمائة نخلة، وهذه تُعد ثروة كبيرة جداً في ذلك الزمان. لو لم يذق حلاوة الإيمان لما استطاع أن يتنازل عن كل هذه الثروة لمجرد سماع آية من كتاب الله.

- حنظلة رضي الله عنه يقوم من عند عروسه في ليلة عرسه وهو لم يغتسل بعد!!

لماذا؟؟ تقول زوجته: سمع الهالعة[٣]، أي سمع منادي الجهاد ينادي حيَّ على الجهاد. لو لم يذق حلاوة الإيمان لما قام من فراشه ومن عند عروسه مسارعاً إلى أرض معركةٍ قد لا يرجع منها أبداً!!

هذا هو الإيمان الذي حبّبه الله وزينه في قلوبهم، يصفه رسول الله ﷺ ويقول: "إن من أمتي لرجالاً الإيمانُ في قلوبهم أثبتُ من الجبال الرواسي"[٤]. ورد في الحديث: "**إن العبد ليلتمس مرضاة الله فلا يزال كذلك فيقول الله عز وجل لجبريل: (إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني، ألا وإن رحمتي عليه).**

---

[١] عمدة القاري (٧٤/٣)
[٢] البخاري (٥٦١١)
[٣] السنن الكبرى للبيهقي (١٥/٤)
[٤] تفسير البغوي (٤٤٩/١) سورة النساء

فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش، ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السموات السبع ثم يهبط إلى الأرض)[1].

يصبح ويمسي وهمه أن يُرضي الله، يصبح ويمسي وهمه أن لا يختطفْ منه إيمانه ولا يضعف إيمانه، يصبح ويمسي وروحه منجذبةٌ لله تعالى، لا يجد راحته وسكينته وانشراح صدره إلا وهو بين يدي ربه في علم، في ذكر، في صلاة، في تلاوة، في عمل يحبه الله. فانجذابه إلى ربه انجذاباً لا ينقطع لأنه ذاق حلاوة الإيمان.

– حلاوة الإيمان قد يذوقها الإنسان في دمعة عين، في قشعريرة جسد، في خفقة قلب، في صلاة خاشعة، في تصبّر على طاعة من الطاعات الثقيلة، في دعاء طويل يظل الإنسان رافعاً يديه حتى تتعب وتثقلْ وهو ما زال يدعو!!

إنها حلاوة حسية، سعادة روحية قلبية عميقة، يتلذذ بها القلب، ويتشبع بها القلب، هي راحةٌ يخالطها فرح، يخالطها أُنس، يخالطها انفساحٌ عجيبٌ في القلب حتى تمرّ عليه لحظات يشعر فيها أنه يحمل بين جنبيه قلباً كبيراً يسع ويسع ويسع جموعاً من الناس..

إنها حلاوة الإيمان!! حلاوة الإيمان التي ما هي إلا رزقٌ من أرزاق القلوب ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢].هذا الشرح وهذا الفسح وهذا النعيم القلبي أصله فتح من الله الفتاح سبحانه وبحمده الذي يفتح مغاليق القلوب، والله إذا أراد بعبده خيراً وأراد أن يعلي درجة عبده فتح على قلبه بهذا الإيمان وبهذه الحلاوة.

فالإيمان ما هو إلا هبةٌ وعطيةٌ ونعمةٌ وفضلٌ من الله، لذلك ختمت الآية ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والفضل هو العطاء الوفير الزائد الذي يغمر المعطي، وهذا الفضل يكون بقدر المتفضِّل لا بقدر المتفضَّل عليه، والمتفضِّل هو الغني الحميد.

- غنيّ يُعطي عن سعة، لا يضيقه العطاء، ولا يتعاظمه ولا يعجزه، ولكنه حكيم يضعُ فضله في مواضعه . هو أعلم بمن يستحق هذا الفضل من عباده وبمن لا يستحق، فليس من أتى الله ماشياً كمن أتاه هرولة، وليس من أقبل وشدّ عزمه وقوّى همته كمن يسحب سحباً، نعم الله يتفضل ويعطي ويبسط ولكن فضله مقرون بعلمه وحكمته فالله أعلمُ حيث يجعل فضله.

---

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٥/٢٦٣)

○ الأدب الرابع: أدب الإصلاح وترك التنازع والخصام والإقتتال.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾

ما زلنا في سياق الإيمان وأهل الإيمان، فالآيات تقرر أخوة الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وهذه الأخوة هي الرحم الكبير الذي يجمع بين المؤمنين ويربط بينهم وهي أشد من أخوة النسب.

وقد عاتب الله عز وجل أهل بدر وهم من همْ حين تنازعوا واختلفوا على الغنائم فقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١].

ليست الغنائم والأموال هي المهمة بل المهم أن تحافظوا على الأخوة الإيمانية بينكم، وأن لا يحصل بينكم خلاف ولا نزاع ولا فرقة ولا خصام فهذا أكبر وأغلى وأهم من أي غنيمة.

- من أجل ذلك جاءت الآيات لتبين المنهج الشرعي إذا حصل خلاف بين المؤمنين ولا بد أن يحصل لأن الله عز وجل لما أراد خلق آدم عليه السلام أرسل ملكاً قبضَ قبضةً من جميع الأرض (يعني من جميع تربة الأرض) فجاء بنو آدم منهم الأحمر ومنهم الأبيض والأسود ومنهم السهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك[1]، فجاء الناس مختلفين في ألوانهم ونفسياتهم وطبائعهم ومشاعرهم بسبب اختلاف طبيعة تراب الأرض التي خُلقوا منها.

– منهم السهل الهادئ السمح الخلوق، الذي هو مثل الأرض الطيبة الخصبة..

– ومنهم الصعب العسِر الوعِر الغليظ الجاف، الذي كأنه أرض صخرية صلبة ليس فيها إلا الحصى والصخور..

– ومنهم اللئيم المخادع المكار الذي كأنه أرضٌ سبخة مهما صببت فيها من الماء وجلبت لها من سماد فهي لا تنبت ولا تُثمر!!

– ومنهم الغضوب المندفع الهجومي وكأنه أرضٌ رملية يتطاير ترابها مباشرة مع أول هبة ريح أو هواء..

إذا الخلاف سيحصل ويقع أولاً بسبب اختلاف طبائع الناس، وثانياً لوجود عدو خطير مترصد متربص شديد الحرص أن يوغر صدور الناس على بعضهم ويثير بينهم العداوات ويبذر في قلوبهم بذور الشر والحقد والكره والقطيعة والفرقة فيهدم الأخوة الإيمانية ويستأصلها من جذورها.

---

[1] رواه أحمد والترمذي وأبو داود وطلحة ابن حبان

- والنبي ﷺ نبه أمته وحذرها من هذا العدو ومن تحريشه ومن نزغاته ومن نفخه "**إن الشيطان يئس أن يعبدهُ المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم**"[1].

هذا التحريش هو من أكبر أسلحة إبليس ومن أخطر الثغور التي يتسلط فيها على الإنسان ويمكر بها عليه.

لذلك جاء الأمر الرباني المهم ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١]. فالشريعة رغّبت في الصلح والإصلاح ورتبت عليه أجور عظيمة.

– قال ﷺ: "**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين فإن فسادَ ذاتِ البين هي الحالقة**"[2].

– وفي حديث آخر: "**أفضلُ الصدقةِ إصلاحُ ذاتِ البين**"[3].

– وقال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: "**ألا أدلّك على تجارة؟ قال: بلى، قال: صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا وقرّب بينهم إذا تباعدوا**"[4]، وفي رواية: "**ألا أدلك على صدقة يحب الله موضعها؟**".

إذاً الإصلاح بين المتخاصمين تجارة يحب الله موضعها، وقد ترجم النبي ﷺ هذا الإصلاح في حياته، فلما

* سمع النبي ﷺ أن أهل قباء حصل بينهم خصام وقتال حتى أنهم تراموا بالحجارة قال لأصحابه: "**اذهبوا بنا نصلحُ بينهم**"[5].

* ولما حصلت الفرقة بين بريرة وزوجها مغيث ويصف ابن عباس رضي الله عنه حب مغيثُ لبريرة، لمّا كرهته وأحبت أن تنفصلْ عنه، يقول ابن عباس [لكأني به في طرق المدينة ونواحيها وأن دموعه لتسيل على لحيته يترضاها].

فجاء النبي ﷺ ليصلح بينهما فقال لها: لو راجعتِه؟ قالت: يا رسول الله أتأمرني؟ قال: إنما أنا أشفع، قالت: لا حاجة لي منه[6].

- ولن يترك الشيطان أمر الصلح سهلاً ميسراً، بل سيزداد في نفثه ونفخه ونزغه وتحريشه وسيسقي بذور الفرقة والنزاع التي بذرها في القلوب أكثر وأكثر [لا تتنازل، لا تعتذر، لا تبدأ بالصلح، لا تقلل من شأنك، لا ولا .....] هذا ما يقوله الشيطان ليعرقل الصلح، وفي المقابل الله عز وجل يقول من فوق سبع سموات ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

---

[1] رواه مسلم

[2] رواه أبو داود والترمذي- صحيح الترغيب (٧٠/٣)

[3] رواه الطبراني والبزار- صحيح اترغيب (٧١/٣)

[4] رواه البزار وحسنه الألباني- صحيح الترغيب (٧٢/٣)

[5] البخاري – رقم الحديث (٢٥٤٧)

[6] الترمذي (١١٥٦)

- وكلنا يبحث عن هذا الخير، والخير من الله ليس كالخير من البشر...

بدءك بالصلح وقبولك للصلح وسعيك في الصلح أنت في كل هذه الأحوال تتاجر مع الله لا مع البشر، ومن بذل شيئاً لله بذل الله له أضعافاً مضاعفة، فالكريم إذا أعطى تفضّل.

النداء الرابع.

۞ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

جاء النداء الرابع والخامس في السورة يحذران من ست آفات.

ما هي هذه الآفات الست ؟؟

السخرية- اللمز- التنابز بالألقاب- سوء الظن- التجسس- الغيبة.

كلها أمراض وكبائر وشرور خطيرة من شأنها أن تُوقد الفتن، وتُفرّق الأُسر، وتثير العداوات وتهدم الأخوة الإيمانية التي وصفها رسول الله ﷺ: "**مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**"[1].

فهذه الآفات إن لم ينتبه لها المؤمن فقد تكون سبباً في تكدير أخوّة الإيمان. وقبل أن نبدأ التفصيل فيها سنأخذ ثلاث نقاط هي بمثابة التوطئة لهذا الموضوع المهم غاية الأهمية:

أولاً: المؤمن ليس رخيصاً عند ربه.

بل إن المؤمن له حرمة، والله عز وجل عظم حرمات المسلمين.

قال ﷺ: "**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعِرضه**"[2]. فلا يجوز لمسلم أن ينتهك حرمة أخيه المسلم.

وما هو قدر هذه الحرمة؟؟ سنعرفه من كلام ابن عمر رضي الله عنه، فقد نظر إلى الكعبة يوماً فقال: ما أعظمكِ وما أعظمَ حرمتِك والمؤمن أعظم حُرمةً منك[3].

إذاً المؤمن حرمته أعظم من حرمة الكعبة، أيّا ما كان هذا المؤمن بأي شكل أو لون أو جنسية أو مهنة فحرمته عند الله عظيمة.

---

[1] رواه البخاري ومسلم

[2] رواه مسلم والترمذي

[3] صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٤١)

ثانياً: إن الله يكره أذية المؤمن.

ويكفينا أن الله عز وجل في سورة النور يقول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩]. مجرد أنه يحب وهذا عمل قلبي لم يتكلم ولم يذيع أو ينشر، مجرد أنه وقع في قلبه حب أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، وإشاعة الفاحشة نوع من أنواع الأذية للمؤمنين. توعدهم الله بأن لهم عذاب أليم.

وأليم من الله ليست هينة!! الله وحده يعلم ما الذي سيصيبهم في الدنيا من وراء هذه الأذية، والله وحده يعلم ما الذي سيجرونه على أنفسهم من مصائب وعقوبات ومن وبَال بسبب هذه الأذية.

- قد تأتيهم دعوة، سهم من سهام الليل من أحد المؤمنين اللذين آذوهم فيسلط الله على قلوبهم فتنة، تفتتن قلوبهم فتسوء خاتمتهم فيختم لهم بسوء والعياذ بالله.
- قد تصيبه الدعوة في صحته، في ماله، في أولاده، في نفسه، قد يُبتلى بضيق وقلق وهم يُنسيه طعم الراحة وطعم النوم وطعم السعادة، ويعيش حياته في شقاء.
- قد تأتيه العقوبة في دينه فتنغلق عليه أبواب من الخير، والعلم، والطاعة، والعبادة، فتُسد الأبواب ويحصل الحرمان والخذلان والعياذ بالله.

وقد توعد رسول الله ﷺ كل من آذى مؤمناً سواء كان في ماله أو عرضه أو نفسه أو أهله وأولاده بأنه سيدخل عليه المضرة والمشقة، وسيأتيه العُسر والإضرار. قال ﷺ: "**من ضارّ مسلماً ضارّه الله ومن شاق مسلماً شق الله عليه**"[١].

جزاءً وفاقاً فالجزاء من جنس العمل. فكما أنك ضريت وآذيت غيرك من المسلمين فلن تُفلتْ من العقوبة حتى لو كنت تدّعي الصلاح، وحتى لو كنت عابداً، فلن ينفعك صلاحك وأنت تؤذي الناس.

*** هذه بعض عقوبات الدنيا، وماذا عن عقوبات الآخرة؟؟**

ورد في الأحاديث[٢] بأن النار فيها حيات كأمثال أعناق البخت – وهي الجمال الطويلة العنق– تلسعُ إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً.

وفيها عقارب كأمثال البِغال، وفي رواية: أن أنيابها كالنخل الطوال، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة. فيسأل أهل النار ربهم التخفيف، فيُقال لهم: يا فلان هل يؤذيك هذا؟ فيقول: نعم. فيُقال له: ذلك بما كُنت

---

[١] رواه الترمذي وحسنه

[٢] عند الطبراني وأحمد وابن حبان. راجع صحيح الترغيب- الجزء الثالث في وصف النار وعذابها

تؤذي المؤمنين. فانتبِه من الأذية واحذر من الأذية، فشرّ الناس من يعيش في هذه الدنيا مؤذياً مضاراً مضايقا لعباد الله.

ثالثاً: إن الإحصاء شديد.

يقول الله عز وجل ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

وأشد ما يكون الإحصاء على ما يتلفظُ به الإنسان، "**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**"[١].

والسلف كانوا يعظمون أفعالاً وكلمات قد نراها نحن اليوم من أهون وأيسر ما يكون. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا لنعدّها على عهد النبي ﷺ من الموبقات"[٢].

ومن ذلك اللعن الذي ابتُلي به بعض الناس وأصبح يجري على ألسنتهم جرياناً فتراهم يلعنون أولادهم وبناتهم وخدمهم ودوابهم وكل من يُغضبهم.

– يقول سَلَمة بن الأكوع رضي الله عنه: "كنا إذا رأينا الرجل يلعن أخاه رأيناه قد أتى باباً من الكبائر"[٣].

والمصيبة كل المصيبة عندما تصغّر الكبيرة، عندما نرى العظائم والموبقات والمهلكات وكأنها مثل الذباب الذي وقع على الأنف فقال به صاحبه هكذا بيده فطار **!!!**

لذلك نحن نستعيذ صباحاً ومساءً في سيد الاستغفار **(أعوذ بك من شر ما صنعت)**.

* يا رب ألتجأ وأعتصمُ، وأعوذ بك من شر ذنوبي التي ارتكبتُها، أعوذ بك من أثَرَها ومن عاقبتها ومن أَلَمها ومن شؤمها عليّ.

* أعوذ بك أن أصرّ على ذنوبي ويصبح هذا الذنب عادةً وطبعاً لا أنفكُّ عنه ثم يُختم لي به، وأعوذ بك أن يموتَ قلبي فأستصغر ذنبي وأحتقره وأراه تافهاً بسيطاً، . وهذه علامة هلاك، فإن الذنب كلما صغُر في عين العبد عظُم عند ربه.

كل هذه المعاني تدخل في استعاذتنا حين نقول **(أعوذ بك من شر ما صنعت)**.

إذاً نحن مع المعاصي والذنوب نواجه مشكلتين:

الأولى: أننا نصغّر ونهوّن الكبائر.

والثانية: أننا نغتر بإمهال الله لنا فننسى ذنوبنا. ونسياننا للذنوب لا يعني أن الله غفرها لنا، وأن الله محاها من صحائفنا بل إن الإنسان يوم القيامة قد يتفاجأ بذنوبه حين يراها أمامه..

– ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

---

[١] رواه البخاري- كتاب الرقاق- باب حفظ اللسان برقم (٦٤٧٨)

[٢] صحيح البخاري (٦٤٩٢)

[٣] الترغيب والترهيب (٣٩٨/٣)

– ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

فلا بد من تعاملنا مع الذنوب أن نكون على حذر وحيطة وخوف. وكما قال ابن القيم رحمه الله:

فربّ مُستدرَجٍ بنعم الله عليه وهو لا يعلم..

وربّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم..

وربّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

فأمر الإحصاء ليس هيناً ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

۞ يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾.

أ- السخرية: هي الاستهزاء بالناس واحتقارهم وانتقاصهم سواء كانت بالقول، بالفعل، بالعين، بالإشارة، بالكتابة، بالرسم، أياً ما كانت الطريقة فكلها داخلة في النهي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾.

فالغالب أن المسخور منه يكون أفضل من الساخر. انظر لكفار قريش كالوليد وأبو جهل وأبو لهب ممن كانوا يسخرون ويضحكون ويتغامزون؟؟ من ضعفاء المؤمنين من عمارٍ وبلالٍ وصهيب رضي الله عنهم. عمار الذي مدحه رسول الله بقوله " **إن عماراً مُلئ إيماناً إلى مُشاشه**"[1]، وبلال الذي سمع رسول الله ﷺ خشفَ نعليه في الجنة[2]، وصهيب الذي نزل فيه قول الله تعالى﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٧] وقال له رسول الله "**ربح البيع ربح البيع**"[3]. فانظر الفرق بين الساخر والمسخور منه!!!

﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾. خص الله النساء لكثرة السخرية بينهن، وقد قيل أن الآية نزلت في اثنتين من زوجات النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة رضي الله عنها كانت تلبس ثوباً طويلاً له ذيل فسخرتا منها وقالتا كأنه لسان كلب[4]، فنزلت الآية تؤدب وتنهى وتحذر المؤمنين عموماً والنساء خصوصاً من هذه الآفة.

فالسخرية تفكّك عُرى الأخوة، وتجعل المسخور منه ناقماً على الساخر، متربصاً به، يحاول الانتقام لنفسه، وبالسخرية يظلم الإنسان نفسه لأنه يحقّر ويستصغر من كرّمه الله ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠] ولقد بلغ بالسلف إفراط توقّيهم منها.

– يقول عمرو بن شرحبيل: لو رأيتُ رجلاً يرضع عنزاً فضحكتُ منهُ لخشيتُ أن أصنع مثل الذي صنع[5].

---

[1] ابن حجر العسقلاني- كتاب الإصابة (٢/٥١٢)

[2] مسلم (٢٤٥٨)

[3] عمدة التفسير (١)- ٢٥٤

[4] تفسير القرطبي (١٦/٣٢٦)

٥-٦ نضرة النعيم (١٠/٤٦١٢)

– وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: البلاءُ موكّلٌ بالقول، لو سخرتُ من كلبٍ لخشيتُ أن أُحوَّل كلباً[٦].

ب- اللمز: هو نوع من السخرية لكنه باللسان، يعيب في الناس ويفري فيهم بلسانه، طعّانٌ عيّابٌ لمّاز، هذه وظيفته والعياذ بالله. لا يسلم منه أحد ونسي صاحب هذا اللسان أن أعراض المسلمين ما هي إلا حفرة من حفر النار.

وتأمل اللفظ القرآني ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ فجعل اللامزُ أخاه لامزاً نفسه، فالمسلمون كلهم نفس واحدة، جسد واحد، سمعة واحدة، كرامة واحدة، فما يضر أخاك يضرك، وما يؤذيه يؤذيك، والذي يطعن ويعيب أخاه كأنه يطعن ويعيب نفسه.

ج- التنابز بالألقاب: إطلاق الألقاب القبيحة والبذيئة، كقول الرجل: يا فاسق، يا فاجر، يا زاني، أو أن يلقبه بأسماء الحيوانات، أو يكنيه بوصف سيء يا ابن كذا، أو أن يصغّره في حسبه ونسبه وقبيلته.

– أتت أم المؤمنين صفية بنت حُييّ بن أخطب رضي الله عنها فقالت: يا رسول الله إن النساء يُعيّرنني، ويقُلن لي: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ﷺ: "هلاّ قُلتِ إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد"[١].

النبي ﷺ غضب من أبي ذر لما عيّر بلال رضي الله عنهما وقال له: يا ابن السوداء، فغضب رسول الله وقال: إنك امرؤ فيك جاهلية. لأن هذا التنابز بالألقاب ما هو إلا من بقايا الجاهلية التي قال عنها النبي ﷺ دعوها فإنها منتنة.

وقد شبّه النبي ﷺ أولئك الذين يفتخرون ويتكبرون بأحسابهم وأنسابهم بالجعل. **"لينتهينّ أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكوذُنُ أهون على الله من الجُعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله أذهبَ عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أو فاجرٌ شقي، الناس كلهم بنو آدم وآدم خُلِق من تراب"**[٢].

هذا هو قدرهم وقيمتهم.

وقد قال بعض السلف: من كان في نفسه شيء فهو عند الله لا شيء[٣].

وهذا صحيح، فالتفاضل عند الله ليس بالأحساب ولا بالأنساب ولا بالألوان ولا بالأشكال وإنما هو بالقلوب والسرائر وما قام فيها من التقوى ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]. فاللهُ ليس بينه وبين خلقه نسب، والميزان عنده التقوى، فكلما كنت أكثر تقوى كنت أكثر كرامة عند الله، التقوى هي المحك وهي الميزان.

---

[١] تفسير القرطبي (٣٢٦/١٦)

[٢] سنن الترمذي (٣٩٥٥)

[٣] كتاب حطم صنمك- مجدي الهلالي

نعم الناسُ كلهم يُصلون، وكلهم يصومون، وكلهم يقرؤون القرآن، وكلهم يتصدقون ويفعلون الخير، الناس سواسية في هذه الأمور في ظواهرها ولكنهم يختلفون ويتفاوتون في تحقيق التقوى، وربما يظهر الإنسان أمام نفسه وأمام الناس أنه متقي وعلى درجةٍ من التقوى، ولكنه إن رجع إلى نفسه وإلى لحظات الصدق مع نفسه ولحظات التجرد والمواجهة وتعرية نفسه أمام نفسه لوجد أنَّ عنده إخلال في كثير وكثير من أبواب التقوى أشياء يُخفيها عن الناس، أمور يتهاون ويتساهل فيها، أمور يتوارى خلفها، نزعات وشوائب تدور في صدره ويتجاهلها ويتغافل عنها.

وما هذا الفخر والكبر والتعالي والسخرية والتهكم والتنابز بالألقاب إلا صورة من صور الإخلال بالتقوى. ولا يمكن بحال من الأحوال أن تجتمع التقوى مع هذه الأوصاف وهذه السلوكيات التي تدل على قلوب سقيمة، وقلوب عليلة متسخة قذفت بما فيها من العلل وأخرجته على اللسان. فالألسنة ماهي إلا مغاريف تغرف من القلب. فلا يمكن أن تجد الرجل متقياً وبذيء اللسان!! فالمتقي في المقام الأول صاحب أخلاق، وصاحب ورع، لسانه عفيف طاهر، ملجمٌ نفسه، وملجمٌ لسانه لأن ضاغط التقوى في قلبه يضغط عليه.

فالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب كلها من أردأ وأسوأ وأنقص الصفات التي تدلك على أن هذا الإنسان قد تدنّى في أخلاقه وسلوكه وفَقَد التقوى في قلبه.

النداء الخامس.

۞ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾

- جاء النداء الخامس في سورة الحجرات يحذر من ثلاث آفات خطيرة وهي سوء الظن، والتجسس، الغيبة.

وهذه الآفات الثلاثة بينها خيط رفيع مشترك وهو أن صاحبها لا يفطن لها. فالذي يُساءُ به الظن لا يشعر والذي يُتجسس عليه لا يُشعر، والذي يُغتاب لا يدري ولا يكون موجوداً.

- كما أن هذا الترتيب القرآني بين هذه الآفات الثلاث يدل كأنها تستدعي بعضها، فالظن إتهام، والتجسس تحققٌ من هذا الإتهام، والغيبة تحدثٌ وإخبار بهذا الإتهام. فأنت إذا أساتَ الظنَّ تجسستْ وإذا تجسستْ اغتبتْ.

لذلك أول ما بدأ النهي به بدأ بالنهي عن الظن.

١- الأصل في المسلم أن يحسن الظن، ولا يظن بالناس إلا خيراً ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور:١٢]. كما أن الإنسان لا يظن بنفسه إلا خيرا، فمن المفترض أن لا يظن بأخيه المسلم إلا خيراً.

وحسن الظن هو الذي كان يعامل به رسول الله ﷺ الناس، فكان يعاملهم بظواهرهم ويحمل كلامهم وتصرفاتهم على أفضل المحامل ويكِل سرائرهم إلى الله.

٢- كما أنه عليه الصلاة والسلام حذر أمته من الظن كما ورد في الحديث "**إياكم والظن**" لسببين:

الأول: أن أكثر الظن مبني على الأوهام والخيالات والشكوك والوساوس التي تمر على النفس، وليس عليها إثباتات ولا دلائل ولا قرائن ولا علامات ظاهرة تدعو للشك والريبة. فهذا الظن محرم فهو ظن السوء المنهي عنه ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ وهو الذي حذر منه رسول الله ﷺ "**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**"[١].

وهو الذي أسماه العلماء غِيبة القلب، فكما أن اللسان يغتاب فالقلب يغتاب وغيبته سوء الظن وتخوين الناس واتهامهم والدخول في نياتهم ومقاصدهم.

الثاني: أن الإنسان لو ركن لهذه الظنون اللتي تتلجلجْ في صدره ومشى خلفها واسترسل معها فلا بد أن يتحقق من ظنه ومن ثمَّ سيبدأ بالتجسس.

- والتجسس صورة من صور تتبع العورات والبحث عن أسرار الناس والتفتيش عن خباياهم وخفاياهم. والله عز وجل يقول (وَلَا تَجَسَّسُوا)، والنبي ﷺ يقول "**ولا تجسسوا**".

لماذا نُهينا عن التجسس؟

أولاً: فيه انتهاك لحرمة المسلم، وكما علمنا سابقاً أن المؤمن له حرمة وحرمته أعظم من حرمة الكعبة ولا يجوز لأحد أن ينتهك هذه الحرمة.

ثانياً: لأن التجسس صورةٌ من صور الإيذاء والله عز وجل يكره أذية المؤمن وقد جاء الوعيد الشديد على من آذى مؤمناً.

قال ﷺ: "**لا تؤذوا عباد الله ولا تعيّروهم ولا تطلبوا عوراتهم فإن من طلبَ عورة أخيه المسلم طلبَ اللهُ عورته حتى يفضحه في بيته**"[٢] .

فهذه سنة ربانية ثابتة أن من تسلّط على عورات الناس وهتكها وفضحها ونشرها سلَّط الله عليه من يكشف عورته وعيوبه، ومن ستر معايب الناس ستر الله معايبه ونقائصه وعوراته.

ثالثاً: نحن في الشريعة مأمورون بالستر "**من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة**"[٣].

والنبي ﷺ قال لهزّال الذي حث ماعز رضي الله عنه أن يذهب ويعترف عند رسول الله بأنه زنى وقال له: "**لو سترته بثوبك لكان خيراً لك**"[٤].

---

[١] البخاري (٥١٤٣)

[٢] رواه أحمد

[٣] مجمع الزوائد للهيثمي (٦/٢٤٩)

[٤] سنن أبي داود (٤٣٧٧)

والمعنى بأنك لو أمرته أن يستر على نفسه ويتوب بينه وبين ربه فهذا أفضل من أن تقول له اذهب واعترف بالزنا. وأبو بكر رضي الله عنه يقول: لو لم أجد للسارق والزاني وشارب الخمر إلا ثوبي لأحببتُ أن أستره[1]. لأنه يعرف قيمة الستر في الشريعة.

فالله عز وجل هو الستّير ويحب الستر ويحب الذين يسترون على الناس، ولا أحد أكثر ستراً على العباد من الله فالله يستر على عباده لكن العباد عجزوا أن يسترَ بعضهم بعضاً!!

رابعاً: إن من سلك هذا الطريق – أعني طريق التجسس– فقد فتح على نفسه بوابة شر، وأتعب قلبه، وأتعب ضميره، فمن المعلوم أن من تتبع أحوال الناس سمِعَ ما لا يرضيه ووجَد ما لا يرضيه والعاقل يُؤثِر السلامةَ ولا يفتحُ على نفسه باباً مغلقاً، فالسلامةُ لا يعدلها شيء.

الغيبة: من الكبائر التي يكثر وقوع الناس فيها رجالاً ونساءً، وقد تتكرر منا في اليوم الواحد عشرات وعشرات المرات.

ما هي الغيبة؟ عرّفها رسول الله ﷺ أنها "**ذكرُك أخاك بما يكره**"[2]، سواء ذكرته هو أو ما يتعلق به من مال أو ولد أو زوجة أو غير ذلك.

- وهي من أخص أخص ذنوب اللسان. يقول الحسن البصري رحمه الله: والله للغيبةُ أسرعُ في دين الرجلِ من الأكَلَةِ في الجسد[3].
- يشبهونها مثل البول. فكما أن البول إذا خرج من الإنسان نجّس الأعضاء ونجّس الملابس والمكان، كذلك الغيبة إذا خرجت من اللسان عكرت القلب وغبشت عليه، فلا يمكن لمثل هذا القلب أن يتلذذ بعبادة أو بخشوع أو ببكاء فهي من أكثر ما يُفقِدِ الإنسان لذة العبادة. بل أحياناً قد يُحرم العبادة نفسها!! فالعبادة رزق والإنسان قد يُحرم الرزق بالذنب يصيبه، كم وكم من إنسان حُرم من قيام الليل لأسابيع بل لأشهر بسبب كلمة خرجت من لسانه! فنحن قد يُغلق علينا بسبب كلمة، وقد نُحرم الطاعة بسبب كلمة، قد نرجع خطوات للوراء بسبب كلمة. ولا تستعجبْ، فإذا كان البحر هو بحر يتأثر بالكلمة.

السيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت لرسول الله ﷺ حسبك من صفية أنها كذا وكذا تعني (قصيرة). كلمة مكونة من خمسة حروف فقط.. بماذا رد عليها رسول الله؟؟ "**لقد قلتِ كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته**"[4].

---

[1] رواه عبد الرزاق في مصنفه

[2] صحيح مسلم ٢٥٨

[3] نضرة النعيم (٥١٧٦/١١)

[4] أبو داود والترمذي

والمعنى أثرت فيه وغيرته وعكرته وهي كلمة!! لذلك كان السلف لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكنْ في الكف عن أعراض الناس[١].

- يقول ﷺ: "**لما عُرِج بي مررتُ بأقوامٍ لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**"[٢].

○ في قوله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ما يدل دلالة واضحة على مدى قُبح الغيبة، وازدراء عظيم لأهلها، إنهم أسوأ من كثير من الحيوانات التي تعاف أن تأكل لحم حيوانات من جنسها، وليس هذا وحسب بل إنهم يأكلون هذا اللحم ميتاً، وكثير من الحيوانات تعاف أكل الميتة ولو ماتت جوعاً. بل إن المغتاب يأكل لحم أخيه ميتاً. ولا أشنع من هذا الوصف، وبالرغم من هذا فإنك تجد الكثير من الناس قد وقعوا في هذا المحذور[٣]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "**من أكلَ لحمَ أخيهِ في الدنيا قُرِّبَ لهُ يوم القيامة، فيُقالُ له كُلهُ ميْتاً كما أكلتَهُ حياً فيأكُلُهُ ويكْلَحْ ويصيح**"[٤].

* مسألة:

لقد ذكر العلماء ستة أسباب تجوز فيها الغيبة[٥]:

الأول: التظلّم. فيجوز للمظلوم أن يتظلّم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرةٌ على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلانٌ بكذا.

الثاني: الإستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب. فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلانٌ يعمل كذا، فازجره عنه. ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الإستفتاء. فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلانٌ بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائزٌ للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجلٍ أو شخصٍ أو زوجٍ كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجبٌ للحاجة.

ومنها المشورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساويء التي فيه بنية النصيحة.

---

[١] نضرة النعيم (٥١٧٧/١١)

[٢] سنن أبي داود (٤٨٧٨)

[٣] التفسير الموضوعي (٧)- صـ ٣٧٢

[٤] الحافظ بن حجر في الفتح (٤٨٥/١٠) سنده حسن

[٥] التفسير الموضوعي (٧)- صـ [٣٦٠-٣٦١]

ومنها إذا رأي متفقهاً يتردد إلى مبتدعٍ، أو فاسقٍ يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه. وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحةٌ فليتفطن لذلك.

ومنها أن يكون له ولايةٌ لا يقوم بها على وجهها: إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً أو مغفلاً، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولايةٌ عامةٌ ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الإستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سببٌ آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف. فإذا كان الإنسان معروفاً بلقبٍ كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقاً على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

○ وقد فتح الله باب التوبة لعباده وختم الآية ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فالله يحب التوبة ويحب التوابين، ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله، والله عز وجل قال عن نفسه ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٢٧]. ومن تاب تاب الله عليه.

* مسألة:

إذا أراد المغتاب أن يتوب هل يلزمه التحلل ممن اغتابه؟

الراجح في المسألة وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لا يلزمه التحلل لأنه إذا أخبره ربما تأذى أشد الأذى، وقد ينفر الشيطان القلوب من بعضها ويُوقع بينهم البغضاء فالأسلم عدم اخباره. وقد روى الحاكم حديثاً ضعيفاً ولكن معناه صحيحاً " كفارة من اغتبته أن تستغفر له".

فيلزم من اغتاب أحداً أولاً أن يندم، والندم هو اعتصار القلب وحرقته على فعل المعصية، والندم توبة، ثم يعزم على أن لا يعود، ثم يثني عليه ويذكره بخير في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يردّ عنه الغيبة وأن يدعو ويستغفر له.

- قال ﷺ: **"من ردَّ عن عِرضِ أخيهِ ردَّ اللهُ عن وجههِ النار يوم القيامة"**[١].
- قال ﷺ: **"من ذبَّ عن عِرضِ أخيهِ بالغيبةِ كان حقاً على الله أن يُعتِقهُ من النار"**[٢].

---

[١] الترمذي (١٩٣١) وقال حديثٌ حسن

[٢] رواه أحمد بإسنادٍ حسن

الخاتمة:

قال تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

- **وقد أنكر الله في ختام السورة على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم بعد. فأدبهم وأعلمهم أنكم لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.**

- **ثم بيّن صفات المؤمنين الكُمّل** ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

بين الصدق والإيمان تلازم، فإن المؤمن هو من فعل الإيمان لا من قاله وادّعاه، فمن ادّعى الإيمان قام بواجباته ولوازمه فهذا هو المؤمن الصادق. فعلامة الصدق الفعل.فالصدق يكون في القلب عقيدةً وإيماناً، وباللسان نُطقاً وتلفظّاً، وبالجوارحِ عملاً وانقياداً.

- **فكما أن سورة الحجرات افتُتحت ببيان الآداب وأن الله سميعٌ عليمٌ، جاءت الخاتمة تؤكد هذا الأمر، وتذكر إحاطة علم الله تعالى بما غاب في السموات والأرض وأن ما يعمله الناس فإن الله يراه فليكونوا على حذر، وهذا يستلزم التقوى مرتقياً بالإنسان إلى الإحسان.**

رزقني الله وإياكم الصدق والتقوى والإحسان
اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت
واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت
اللهم ألهمنا رُشدنا وأعِذنا من شرور أنفسنا
وخذ بنواصينا إليك أخذ الكِرامِ عليك
اللهم آمين

انتهت كتابته الثلاثاء
الموافق ١٤٣٤/٧/١٨هـ